هل تكمن القوة المحركة للتاريخ في هذا الفنجان؟

نحن نشاطر الآخرين الذين نكاد لا نعرفهم السوائل الباردة لأنها جاهزة ولا تتطلب وقتا لتحضيرها، في حين نشاطر السوائل الساخنة الناس ذوي العلاقة الودية الأقوى بنا، لأنها تحتاج إلى زمن أكبر لتحضيرها، فهل هذا هو السبب الذي يجعلنا نقدم ضيافة من المشروبات الساخنة للناس الذين تجمعنا بهم الألفة والمودة؟ وربما لهذا السبب أيضاً يُعدّ تقديم أي مشروب آخر غير القهوة الساخنة نوعاً من الاستخفاف بالضيف الذي يشعر بشيء من برودة الاستقبال إذا لم تقدم له القهوة!

ربما لا يعلم الكثيرون منا وهم يبدأون يومهم باحتساء كوب من القهوة أن هناك تاريخا حافلا خلف اكتشاف هذا المشروب الذي أصبح من الأمورالاساسية في جدول كل منا.

الباحث في تاريخ القهوة سيجد الكثير من القصص حول أول من احتسى القهوة في حين يعتقد البعض أن القهوة أُكلت أولاً، إذ تروي الحكايات أن راعي أغنام عربيا، لاحظ أن أغنامه قد أصابتها حالة من النشاط بعد آكلها حبوب نبات معين، ولاكتشاف ماهية المادة التي أنعشت قطيعه قام بغلي هذه الحبوب وفي رواية أخرى أكلها كما هي ولاحظ التأثير المنشط لها. ولكن القصص حول البلد الذي اكتشفت فيه القهوة تختلف فبعضها يقول اليمن والبعض الآخر يقول إثيوبيا وغيرهم يقولون تركيا.

وفي معرض يعنى بإنجازات وتاريخ العرب أقيم في مدينة مانشستر تحت عنوان «ألف اختراع واختراع» تعرف الزوار على قصة القهوة وتاريخها من خلال مخطوطات ورسومات لأول المقاهي وللقوافل التي تحمل الحبوب والتي تعود لأصول عربية. لكن الشائع أن المتصوفة هم أول من لفت الأنظار إلى القهوة، ربما استخدموا " القات "

في البداية كمشروب منبه، ثم استخدموا القهوة لذات الغرض، فربما أعانتهم على تأدية ما يأخذون به أنفسهم من عبادات.

وأيا كان البلد الذي اكتشفت فيه حبوب القهوة فمن المعروف أن بداية زراعة شجرة البن في الجزيرة العربية كان في حوالي عام ١١١٠ ميلادي وتقريبا في نفس هذه الفترة بدأ العرب بإعداد الشراب كما نعرفه الآن عن طريق تحميص الحبوب وغليها و تروي الحكايات أن أول محل لبيع حبوب القهوة كان في القسطنطينية في أواخر القرن الخامس عشر وتبعته إقامة مقهى هناك. وفي بعض الأقاصيص يعود استخدام كلمة «موكا» إلى الميناء اليمني الذي كانت تصدر منه القهوة إلى سيلان والهند.

تقول الأساطير أن جنيا جاء أهل قرية فوجدهم من المجانين.....فوصف لهم ثمرة البن يأكلونها فيعودون إلى الرشاد ، وبعد عام عاد إليهم فألفى قسما منهم لا يزال على جنونه فوصف لهم تحميص البن وأكله ، ثم عاد بعد عام ليجدهم في حال أفضل، فأشار إليهم بغلي القهوة بعد تحميصها وطحنها، وغاب عاما آخر وعاد ليجدهم أصحاء تماما وفي حالة من السرور وقد زال عنهم الجنون، فصنع لهم الجني فنجانا حيث جاءت التسمية بعد ذلك من كلمتيّ (فن) و(جان) أي الفن الذي ابتدعه لهم الجان.

مع انتشار استخدام المشروب بين العرب بدأ التجار في التسويق له في أوروبا وحسب بعض الأقاصيص فإن أول بلد استقبل المشروب كان فينيسيا في عام ١٦٠٠ تبعته إقامة أول مقهى في ايطاليا في عام ١٦٥٤.

بالنسبة لأوروبا كان المشروب قد أصبح جزءا من الروتين اليومي فافتتح أول مقهى في انجلترا عام ١٦٥٢ وافتتح التاجر ادوارد لويد مقهى يحمل اسمه عام ١٦٨٨ وهناك كان أول استخدام لكلمة «تيبس» أو البقشيش، إذ كان رواد المقهى الذين يرغبون في خدمة أسرع ومقعد مريح يلقون بقطعة نقود معدنية في حاوية معدنية مكتوب عليها (للحصول على خدمة أفضل) «to insure prompt service TIPS».

وترجع الروايات استخدام السكر في تحلية القهوة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر الذي افتتح أول دار للقهوة في باريس بعد أن أهديت إليه شجرة بن.

لكن شرب القهوة في البيوت لم يصبح دارجا في أوروبا إلاّ بعد القرن السابع عشر وكان ارتياد المقاهي في الأصل مقصورا على الأدباء والفنانين والفلاسفة لذا كان يطلق على المقاهي اسم (مدارس العلماء)، ونجد أن الموسيقار " باخ " قام بتأليف مسرحية مشهورة عن القهوة ،وكتب عنها دوديه وراسين.

وفي القرن الثامن عشر أصبحت المقاهي مراكز شعبية يتناول فيها الناس المسائل العامة بالمناقشة، وهكذا اكتسبت القهوة المزيد من المستهلكين حتى وصلت إلى العالم الجديد مع رحلات الاستكشاف فيقول بعض المؤرخين أن الكابتن " جون سميث " ادخلها إلى أمريكا والبعض الآخر يؤكد دخولها إلى كندا أولا.

وهكذا يمضي تاريخ القهوة حتى اختراع ماكينة الاسبرسو في فرنسا عام ١٨٢٢ وصناعتها في ايطاليا في ١٩٠٥ وتبع ذلك اختراع آلة تقطير القهوة حيث استخدمت ميليتا بينتز الورق النشاف كفلتر للقهوة.

ولا عجب بعد هذا التاريخ الحافل أن تصبح القهوة من أثمن السلع في العالم بعد البترول، ولأن محبي القهوة لا يرضون عنها بديلا فهي أصبحت تحتل مكانها الثابت في النشاط اليومي لكل منهم.

المقهى بطبيعته مكان عام يرتاده الغني والفقير والمتعلم وغير المتعلم، تختفي بين رواده الفوارق الطبقية والدينية ويصبح مكانًا للتواصل الاجتماعي، وقد لعب المقهى دون شك دورًا سياسيا كونه مكان حرية التعبير فيه ـ بغض النظر عن هدفها ـ هي القاعدة.

ويلخص أحمد بهاء الدين في كتابه (أيام لها تاريخ) أهمية هذا الدور في عبارة موجزة : " ففي مقهى متاتيا في القاهرة كان جمال الدين الأفغاني يوزع السعوط بيمناه والثورة بيسراه". ومن أفكار الأفغاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومن أفكار تلاميذه حول عملية تشكيل التاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوسط لا تزال المنطقة حبلى ببعض من جذور هذه الأفكار.

كانت القهوة التي نعدها الآن أكثر المشروبات وقارًا موضعًا لقضية شرعية وسياسية ساخنة في العالم الإسلامي؛ إذ تم تحريمها أكثر من مرة في القرن السادس

عشر فاللافت في تاريخ القهوة أنها حرّمت وحظرت في مكة مرتين، كان آخرهما عام ١٥٢٥م، وفي القاهرة ثارت قضيتان حول تحريم القهوة، الأولى ـ وهي الأعنف ـ دارت عام ١٥٣٢م، أما الثانية فحدثت عام ١٥٣٩م، وقد انطلقت الحملة المعادية للقهوة في القاهرة من الأزهر بعد أن تبناها شيخ أزهري يدعى الشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي.

إلا أن التحريم لم يستمر ولم يأخذ به كثير من الأئمة، فسرعان ما شاعت وانتشرت، وانتشرت معها المقاهي الشعبية، التي تكاد تندثر الآن في كثير من مناطق الشرق الأوسط، غير أن الانفتاح التجاري على العالم ونمو قطاع التوكيلات التجارية، جلب معه نمو قطاع المقاهي الحديثة، ولربما كانت شركة ستاربكس الشركة الأسرع نمواً حول العالم في هذا المجال.

وقد تأسست سنة ١٩٧١م كبائع للشاي والقهوة والتوابل للذواقة، إلى أن قام مدير بيع التجزئة فيها، هيوارد شلتز بزيارة إلى إيطاليا، حيث شاهد هناك المقاهي التقليدية، فأوحت له بفكرة تقليدها، وقد استطاع أن يقنع مؤسسي ستاربكس باختبار اقتراحه في مكان جديد في وسط سياتل، وقد نجح الاختبار، وبدأت ستاربكس تنمو اعتباراً من عام ١٩٨٧م، وكانت سياسة هيوارد هي تسويق المقهى كمكان ثالث لتناول القهوة بعد البيت والمكتب، وأصبح مكاناً للاجتماع بين الأصدقاء والمعارف للاسترخاء والتحادث.

وفي كتابه (مقاهي الشرق) من إعداد جيرار جورج ليمير وترجمة محمد عبد المنعم جلال مع مقدمة لجمال الغيطاني في رحلة تطوف من سالونيك وإستانبول إلى الدوحة وبغداد ارتكازًا على القاهرة، والإسكندرية، ومرورًا بدمشق وعمان وأثينا ونيقوسيا، يقول : " لارتباط اسم المكان بالمشروب كان لا بد أن تحسم أولاً قضية جوهرية : هل القهوة حلال أم حرام ؟ جدل استمر طويلاً ليس في الشرق وحده وإنما أيضًا في الغرب قبل أن يأخذ عن الشرق الاسم والمسمى".

يقول ليمير : " يحيط بظهور القهوة غموض، وبسبب ذلك الغموض تولدت أساطير ازدادت بمرور القرون، وبحكم تكرارها أصبحت حقائق، لأن قوة الأسطورة هي في سد الفراغ وكما نعرف كثيرًا فإن الروح العلمية تخشى الفراغ".

فنجان القهوة، مثله مثل أشياء كثيرة معتادة في حياتنا اليومية، نأخذه كأمر مسلم به، وتنحسر أهميته لدى الملايين من المتعاطين له حول العالم في مذاقه، أو مفعوله المنبه، وأحيانًا في آثاره الصحية، فهل نتصور أن أحد المؤرخين يعتقد بجدية أن في هذا الفنجان تكمن القوة المحركة للتاريخ ؟ ففي كتاب " ليمير " ينسب النهضة الأوروبية وميلاد عصر التنوير إلى بداية إقبال الأوروبيين على شرب القهوة في أواسط القرن السادس عشر، وقد وجد مؤلف آخر خلف كل فنجان من القهوة تجسيدًا للظلم الاقتصادي والقهر السياسي الذي وقع على شعوب استعبدت في الماضي وما زالت تستعبد في ظل العولمة بسبب تجارة البن.

ذات يوم عثر صحفي أمريكي شاب يدعى (ستيوارت لي آلن) على كتاب للمؤرخ الفرنسي (جول ميشليه) الذي عاش وكتب في القرن التاسع عشر بعنوان "Mon Journal" يتناول فيه تاريخ أوروبا وأحوالها في العصور الوسطى، والعوامل التي أدت إلى نهضة الحضارة الأوروبية وميلاد عصر التنوير، وقد اندهش ستيوارت عندما وجد أن القهوة لها مكان بين تلك العوامل.

يقول ميشليه : (إن التفجر الهائل الباهر للإبداع الفكري يعود الفضل فيه جزئيًّا إلى ذلك الحدث الكبير الذي خلق عادات جديدة، وغير من المزاج الإنساني، كان هذا الحدث هو مجيء القهوة، التي دخلت عالم السياسة ، وكان الأمراء يكرهون المقاهي ويقاومون انتشارها خوفا من تفشي روح الانتقاد الخطير الموجه إليهم، حتى أن الحكومة البريطانية بذلت جهودا عظيمة لإلغاء المقاهي في بداية انتشارها.

إن الذي ليس عليه خلاف هو الدور الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي لعبه ويلعبه المقهى في حياة الشعوب وبصفة خاصة في الشرق ، وقد رصد المؤرخون والرحالة منذ القرن الخامس عشر هذا الدور .. فالرواة الحكواتية والوعاظ والفقهاء كانوا لقرون مصدر تثقيف لرواد المقاهي قبل أن يحل الراديو والتليفزيون محلهم .

المقهى بطبيعته كمكان عام يرتاده الغني والفقير والمتعلم وغير المتعلم، تختفي بين رواده الفوارق الطبقية والدينية ويصبح مكاناً للتواصل الاجتماعي .

والمقهى كمكان حرية التعبير فيه بغض النظر عن هدفها النهائي هي القاعدة، قد لعب دون شك دورا سياسيا .

إن الشيء الذي قد يكون مؤكداً هو أن المشروب عرف أولا ثم نحت له اسم بعد ذلك ويبدو أن جدل الحلال والحرام ثار قبل شيوع الاسم .

يشير مؤرخ قديم هو عبدالقادر الجزيري الذي أبدى اهتماما خاصا بالقهوة إلى أن أول تحريم لتناول القهوة وقع عام ٩١٧ هجري الموافق عام ١٥١١ ميلادي عندما ذهب خير بك الذي كان يشغل منصب المحتسب في مصر الي الكعبة لأداء فريضة الحج فشاهد جماعة من الرجال مجتمعين حول فانوس يتناولون مشروبا، وسارع الرجال باطفاء الفانوس عندما أحسوا به فانتابته الحيرة، ثم علم أن ذلك المشروب الغامض يسمي القهوة وأن هناك عادة تناولها في أماكن مختلفة كالحانات حيث تقع أمور محظورة.

استدعى خير بك العلماء ثم تقرر الاستعانة برأي الأطباء وجيء باثنين منهم قالا إن القهوة من طبيعة باردة وجافة وأنه يتضح من ذلك أنها تضر صاحب الطبع المعتدل .. ضاعت سدى حجج الآخرين بأن أطباء آخرين امتدحوا فوائدها الطبية كعلاج للبلغميين .. وهكذا أعلن خير بك في مكة أن بيع البن وتناول القهوة محظورات .

حقيقة لم يعمل بهذا القرار إلا في فترة من الوقت ثم سرعان ما تناساه الناس غير أن المؤرخين العرب والمسلمين في القرن السادس عشر يخلصون إلى أن من يعانون من طبيعة سوداوية عليهم عدم الإسراف في تناول القهوة لأنها تعرضهم إلى مزيد من الأرق والاكتئاب .

وينتقل هذا الرأي إلى أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي حتى إن فرانسيس بيكون كما يقول ليمير يقول في مقال له بعنوان "أحياءوأموات" إن القهوة بالنسبة للأتراك تهيج وتبلبل العقل .

غير أنه بنهاية القرن السابع عشر يبدو أن الاعتقاد بقدرة القهوة على الشفاء من الأمراض قد تملك على الناس عقولهم إلى الحد الذي يروي معه السير هنري بلونت

الذي زار المنطقة في ذلك الوقت أنه عندما يقع أحد الأتراك فريسة للمرض فإنه يسارع بتناول القهوة، فإن لم تأت بنتيجة .. فإنه يكتب وصيته ولا يفكر في شيء آخر .

يقول فليكس فابري الرحالة الايطالي الذي زار القاهرة في آخر القرن الخامس عشر إنه لاحظ وجود باعة متجولين يحملون مواقد فوق رؤوسهم يعدون ويقدمون القهوة للمارة .

يضيف ليمير إنه من المحتمل أنه في البداية قدمت القهوة في الأسواق الكبيرة وكان مطبق صغير متنقل يكفي لاعدادها .. ومع مرور الوقت أقيم المطبخ في محل صغير في مكان منعزل بحيث لا يتحرك يحتفظ فيه بمكان للمستهلكين الذين يجلسون فوق مسطبة أمام المحل .

في الحملة نظرات أشعلت خطبه الساخنة حماسة آخرين أكثر حركية، وفي إحدى المرات اندفعت جماعة لا تحمل أي صفة رسمية إلى الشوارع تهاجم المقاهي وتكسر محتوياتها وتضرب الجالسين عليها، ثم وصل الأمر إلى قاض في القاهرة من أتباع المذهب الحنفي اسمه محيي الدين محمد بن إلياس الذي جمع العلماء وانحاز لرأي المؤيدين لحلية القهوة .

الغريب أن المعارضين للقهوة أسسوا تحريمهم لها على أساس أنها شراب مسكر وأحدهم ساوى بين القهوة والحشيش، وكان أكثرهم اعتدالا يرى أنه يكفي لحرمتها أنها تحدث تغييراً في العقل والبدن، وقد اعتقد المؤيدون للقهوة على مبدأ الإباحية الأصلية التي أنقذ القهوة من التحريم، وأشار أحدهم معلقا على نظرية التغيير إلى أن الثوم والبصل وغيرهما من أنواع الطعام والبهارات تحدث تغييرات قوية في الجسم والمخ ومع ذلك لم يدع أحد إلى تحريمها .

وبينما يرى الجزيري وهو المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث أن المعارضين للقهوة كانت دوافعهم تنحصر في التعصب الأحمق، و يرى رالف هاتوكس أن الأمر لا يخلو من الدوافع السياسية والاجتماعية، وخاصة أن ظاهرة التجمع أو التجمهر هي التي راعت المحتسب وغيره وليس مشروعية مكونات المشروب في ذاته .

ونشرت مجلة وجهات نظر المصرية في ترجمتها لمقاطع من كتاباته : أن ذهنية التحريم هذه لا تتصل فقط بالعرب أو المسلمين دون غيرهم والدليل على ذلك موجود أيضا في تاريخ القهوة، ففي عام ١٧٧٧ شن فريدريك الأكبر حملة كبيرة لحظر القهوة في بروسيا دفاعا عن صناعة البيرة التي رأى فيها رمزا للهوجة الألمانية، وكان ذلك في وقت سادت فيه ثقافة لا تثق في أي شيء غير ألماني، وقد انعكست هذه القضية في عمل فني ظهر عام ١٧٣٢ للموسيقار الألماني الشهير يوهان سيباستين باخ، حيث ألف كانتاتا مقطوعة موسيقية تحتوي على قصة تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقي من غير تمثيل، مثل أوبرا مصغرة للدفاع عن القهوة أسماها كانتاتا القهوة وهي تحكي قصة عن أب صارم يهدد ابنته التي تعشق شرب القهوة بأن تختار بين خطيبها أو الاستمرار في عادتها، ولكنها تصر على مشروبها المفضل، بل وتشترط في النهاية أن ينص عقد الزواج على حقها في صنع وشرب القهوة في أي وقت تشاء .

وفي إثيوبيا وهي بلد مسيحي، تم حظر القهوة عدة مرات على أسس دينية وذلك منذ أن ارتبط شراب القهوة بالمسلمين، وقد كان ستيوارت أحد القساوسة الأثيوبيين يعتقد أن المسلمين يستخدمون القهوة لصنع اللعنات وأعمال السحر للناس، ولكن المطمئن في الأمر أن دعاوى الحظر والتحريم هذه لم تنجح أبدا في الاستمرار، وإنما يبدو أنها كانت تظهر أي تفتعل في فترات الضعف الحضاري والسياسي، وهي تدل على استراتيجية توظيف الدين في خدمة الأغراض السياسية وهى استراتيجية تكاد تكون أزلية .

لكن المقاهي لم تظل تلك الأماكن القميئة السيئة المنظر والاعداد فجان شاردان في كتابه رحلة إلى فارس يصف مقاهيها بأنها قاعات كبيرة رحبة ومرتفعة مختلفة الأشكال وهي في العادة أحسن الأماكن بالمدينة لأنها موعد لقاءات وأماكن لهو للأهالي. ويبدو أن المقاهي تمتعت من البداية بسوء السمعة فقد كانت تعتبر أوكاراً للبغاء والشذوذ الجنسي.

استغلت السياسة المقاهي كملتقى تجمع جماهيري، وينسب دوهسون الذي زار المنطقة في القرن الثامن عشر إغلاق المقاهي في استنابول إلى أسباب سياسية بعد أن أصبحت في عهد مراد الرابع أماكن لقاء لأشخاص وجنود متمردين.

في القرن التاسع عشر كانت حكومة محمد علي في مصر شديدة القلق من أحاديث التمرد والعصيان في مقاهي القاهرة بحيث جندت جواسيس لكي تصغي للأحاديث التي تدور فيها.

تتغير الظروف والأحوال بيد أنه كما يقول ليمير كما في باريس وروما ولندن والبندقية فإن مقاهي الشرق تمثل مراكز حرية التعبير فيها هي القاعدة .. وحيث يمكن للحرية أن تكون رخصة دنيئة أو مطمحاً للمطلق والحق.

ما يروى عن روبرت كنيدي أثناء جولته الانتخابية وقبل مصرعه على يد بشارة سرحان ،أنه عندما سئل عن مشكلة العرب واليهود قال: ".....بالنسبة للعرب، فإن طعم قهوتهم المرة لا يزال في فمي "... وقد قال ذلك بتقزز ظاهر.

فهل يمكن أن تكمن القوة المحركة للتاريخ أحيانا في فنجان قهوة؟!

obeikandl.com